مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد EISSN 2600–6324 / ISSN 2170-1636 / الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

أدب الرحلة الأوروبية كمصدر هام لتاريخ الجزائر في العهد العثماني (رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت 1732م أنموذجا)

Literature of the European journey as an important source of the history of Algeria in the Ottoman era (The German journey J.E Habenstreit 1732 model)

المؤلف المرسل: إلياس سبوعي Sebouai ilyes
طالب دكتوراه تاريخ حديث- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 أحمد بن بلة (الجزائر)
sebouaiilyes@gmail.com
المؤلف2: د. حميد آيت حبوش Ait habouche hamid
أستاذ محاضر أ تاريخ حديث- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 أحمد بن بلة.
hamidaithabouche@yahoo.fr

صص251- 272
تاريخ استقبال المقال: 2019/09/09 تاريخ المراجعة:2019/09/17 تاريخ القبول:2019/10/07

الملخص: تختلف مصادر تاريخ الجزائر العثمانية ين المحلية والأجنبية، هذه الأخيرة لا يمكن لدارس لتاريخ الجزائر في العهد العثماني الاستغناء عن الرجوع إليها، والتي من بينها كتابات الأسرى والقناصل ورجال الدين والرحالة...؛ كتابات لأشخاص زاروا الجزائر لأهداف معينة، سجلوا فيها كل ما وقعت عليه أعينهم وما سمعته أذانهم، من معلومات وحقائق وأوصاف قيّدوها ضمن مؤلفات أخذت طابعها من هدف رحلة الكاتب وسبب زيارته للجزائر،حيث سنتناول في هذه الدراسة أحد هذه المصادر التي تندرج ضمن أدب الرحلة الأوروبية، وهي رحلة طبيب والعالم الألماني ج. أو. هابنسترايت، الذي زار الجزائر في المنتصف الأول للقرن الثامن عشر ميلادي في إطار بعثة علمية لجمع عينات من حيوانات ونباتات المنطقة، وتعتبر هذه الرحلة من بين أهم الرحلات التي تحدثت عن الجزائر في العهد العثماني، لما احتوته من معلومات هامة وحقائق تاريخية مست مختلف الجوانب من تاريخ الجزائر (سياسيا، اقتصاديا واجتماعيا....).

هذه الدراسة سنتناول فيها رحلة العالم الألماني هابنسترايت، مقسمة إلى جزأين الجزء الأول خاص بالرحالة ورحلته نقوم فيه بتحليل للرحلة من تعريف بصاحبها وتبيّين مسارها وحيثياتها، وفي الجزء الثاني خاص بالمعلومات والملاحظات

التي سجلها، سنركز فيه على سرد وإبراز جميع الجوانب التي سجلها الرحالة وقيّدها في رحلته مع تدعيمها بمصادر ومراجع تتناول نفس الموضوع، للتأكيد على أهميتها كمصدر هام لتاريخ الجزائر يتناول مجموعة من الأوضاع التي تميزت بها في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحيّة: الرّحلة؛ الرّحّالة؛ أدب الرّحلة؛ الطّبيب؛ الجزائر؛ العهد العثماني؛ الرّحّالة الألماني؛ القرن الثّامن عشر؛ المصادر الغربيّة؛ الأوضاع.

ABSTRACT : Researchers in the history of Algeria in the Ottoman era can not do without reference to the Western sources of that period, which include the writings of prisoners and consuls, clerics and travelers ...Writings of people who visited Algeria for certain purposes, recorded everything that can be noticed or heard. The present study tackles one of the writings of the European journey literature. It is the journey of the German J.E. Habenstreit, who visited Algeria in the first half of the 18th century in the framework of Scientific mission to collect samples of the region's animals and plants. This trip is one of the most important trips that spoke about Algeria in the Ottoman era, because it contains important information and historical facts that covers various aspects of the history of Algeria (politically, economically and socially ...).

This study deals with the German scholar Habenstreit trip. It is divided into two parts, supported by sources and references dealing with the same subject, to emphasize its importance as an important source for the study of the history of Algeria. It also tackles a range of situations that characterized it during that period.

Keywords: Travel; traveler; travel literature; doctor; Algeria; Ottoman era; German traveler; eighteenth century; foreign sources; conditions.

1-المقدمة: تعددت المؤلفات الغربية التي تناولت تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة، فنجد منها كتابات الرحالة، القناصل، الأطباء، العلماء والأسرى...؛ والتي يمكن اعتبارها إحدى المصادر المعتمدة في كتابة تاريخ الجزائر، حيث تعطينا صورة واضحة عن الأوضاع السائدة فيها، وعن المكانة التي احتلتها الجزائر بين الدول القوية في تلك الفترة، مما جعلها محط أنظار ومقصدا للعديد من الشخصيات والرحالة على مدى ثلاثة قرون، تركوا انطباعات وآراء وحقائق تاريخية عن البلاد.

اختلفت أنواع الرحلات الأوروبية التي كانت بالجزائر، فنجد الرحلة الاستطلاعية، الدينية، السياسية،...، والعلمية، هاته الأخيرة التي قام بها عدة شخصيات على رأسهم العالم والطبيب الألماني ج. أو. هابنسترايت (Johann Ernst Habenstreit)، الذي زار شمال إفريقيا (الجزائر، تونس وطرابلس) في مهمة علمية

سنة 1145هـ/1732م؛ قدم خلالها ملاحظات دقيقة عن إيالة الجزائر ماضيها وحاضرها، والاطلاع على أوضاع سكانها السياسية، الاجتماعية والاقتصادية في عهد الدايات (1671-1830م) الذي تميزت فيه الجزائر باستقلال نوعي عن الدولة العثمانية، فرغم أنّ مدة إقامته بالجزائر لم تدم طويلا، إلا أنّ معلوماته عنها كانت متنوعة وثمينة، لذلك أردنا تسليط الضوء على هذه الرحلة التي كانت معظم الدراسات السابقة حولها تهتم إلا بجانب واحد مما جاء فيها، حيث سنحاول في هذه الدراسة الإلمام بجميع جوانبها، وذلك بتبسيطها أكثر بدراسة حيثياتها وترتيب محتوياتها في عناصر تبين مدى أهمية هذه الرحلة كمصدر هام لتاريخ الجزائر، مع الرجوع إلى مصادر ومراجع تؤكد ما جاء في هذه الرحلة.

2- التعريف بالرحالة ورحلته:

1.2- أضواء عن حياة الرحالة: جوهان أرنست هابنسترايت ولد يوم 15 جانفي سنة 1702م في نوشتادت أون أورلا (Neustadt an Orla)، وتوفي يوم 05 ديسمبر سنة1757م في لايبزيغ (Leipzig)[1]، درس الطب في شبابه بجامعة يينا (Iena)، واستقر بها، حيث تحصل على عمل بفضل توصية من عالم النبات ريفيناس (Rivinas) وأوكلت له مهمة العناية بالنباتات النادرة، وهذا ما سمح له بمواصلة دراسته والحصول على مؤهل يسمح له بمزاولة مهنة الطب[2]، تحصل على الماجستير في الفلسفة سنة 1728، تحصل على الدكتوراه في الطب سنة 1729، وفي يوم 30 جوان1731 م كان في الأكاديمية الألمانية للعلوم في نيوبوندنيا (Académie allemande des sciences Leopolina)[3].

2.2- رحلة هابنسترايت سنة 1732م: سلوكه المنضبط وإخلاصه في العمل، كان عاملين ساعده على أن يحظى بثقة ملك بولونيا ومنتخب الساكس أوغسطين الثاني (1670-1733م)[4]؛ هذه الثقة كانت بمثابة الخطوة الأولى لبداية رحلته إلى مواطن جديدة، تختلف عن بلاده في الكثير من الجوانب، فقد كلفه ملك بولونيا برئاسة بعثة علمية إلى شمال إفريقيا، للتعرف على نباتات وحيوانات تلك المنطقة، والعمل على جمع عينات لفائدة القصر الملكي[5]، حيث عرف كيف ينال ثقة حكام الجزائر وتونس وطرابلس وإقامة علاقات ودية معهم، ونظرا للأوضاع السائدة في تلك الفترة والتي

منعته من التعرف أكثر على تونس وطرابلس، نظرا للحقد الذي يكنه سكان شمال إفريقيا للأجانب والمسيحيين نتيجة الاحتلال الاسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير في 1732م، مما اضطره إلى تحديد تحركاته[6]، بالاضافة إلى المستجدات التي حتمت عليه إنهاء رحلته دون إكمالها والعودة إلى ألمانيا، فبوصول نبأ وفاة الملك أوغسطين الثاني الذي كلفه بهذه المهمة في 04 ماي 1733م، شد الرحال عائدا إلى موطنه، ليحظى مجددا برعاية الملك الجديد أوغسطين الثالث الذي عينه أستاذا للطب في لايبزيغ، ما ساعده على كتابة عدة مؤلفات منها رحلته هذه، لكن شاء القدر أن لا تنشر أعماله بسبب وفاته أثناء تأديته واجبه في حرب السبع سنوات، حيث توفي في 05 ديسمبر 1757م[7].

يذكر الأستاذ سعيدوني كيف تم العثور على المسودات التي تحوي رحلته هذه، وكيف نشرت أول مرة إلى أن وصلت بين يديه وقام بترجمتها إلى العربية[8]، ويمكن أن نلخص مسار الرحلة وحيثياتها في النقاط التالية:

- **مسار الرحلة:** كانت الانطلاقة من مدينة دريسدن عاصمة إقليم الساكس في 23 أكتوبر 1731م، باتجاه المدينة الفرنسية مرسيليا التي وصلها في شهر نوفمبر من نفس السنة، وبقي فيها إلى أن ركب السفينة الانجليزية المتجهة نحو الجزائر يوم 22 جانفي 1732م، في رحلة بحرية دامت أكثر من عشرين يوما لترسو السفينة بميناء الجزائر يوم 16 فيفري 1732م.

جاءت زيارته للجزائر في شكل ثلاث رسائل موجهة لملكه، الرسالة الأولى أدرج فيها وصوله للجزائر سنة 1732م، حيث قام بمقابلة الداي عبدي باشا، وإعلامه بالمهمة التي جاء من أجلها، وهي القيام بأبحاث علمية يجمع فيها النباتات والحيوانات النادرة، فأجابه الداي بأن بلاده مفتوحة لهم في رحلتهم، وأنهم يستطيعون الاعتماد على حمايته[9].

أما الرسالة الثانية التي كانت بتاريخ أول جوان 1732م، خصصت إلى زيارات المدن والخروج مع جنود المحلة، وبعد سماح الداي لهابنسترايت بمصاحبة المحلة وتزويده برسائل إلى الحكام من أجل حمايته.

وفي 31 أوت سنة 1732م كانت رسالته الثالثة لملك سكسونيا، تكلم هابنسترايت فيها عن استعدادات حكومة الجزائر لصد هجوم اسبانيا، وفي ظل الظروف الغامضة توجب على الرحالة وبعثته العلمية مغادرة مدينة الجزائر مودعا الداي[10].

ونجد أن هابنسترايت قد قام بشكر الداي على ما قدمه له من حماية ورعاية، وطلب الإذن منه لمواصلة سفره للبحث عن الحيوانات النادرة وإكمال مهمته العلمية.

هنا تنتهي رحلة الرحالة الألماني في الجزائر بمغادرتها نحو تونس في 25 جويلية 1732م، لكنّه لم يوقف أبحاثه العلمية بل قام بمواصلة مشواره العلمي مع رفاقه متجها نحو تونس ثم طرابلس الغرب لتحقيق ما جاء من أجله.

الأشخاص الذين قابلهم أثناء رحلته بالجزائر: التقى الرحالة الألماني أثناء رحلته بالجزائر بعدة شخصيات رسمية، وهم كالآتي:

أ- القنصل الإنجليزي بلاك (Black): عندما وصل هابنسترايت إلى الجزائر كان تحت حماية القنصل الإنجليزي بلاك هو ورفاقه، فكانوا ضيوفا في بيته وقدم لهابنسترايت المساعدة فتوسط له لدى الداي لتسهيل العمل عليه[11].

ب -الداي عبدي باشا: كان نجاح صاحب الرحلة في مهمته بفضل المساعدة التي تلقاها من قبل عبدي باشا، ومن بين هذه المساعدات التي قدمها لها، السماح بمرافقة المحلة وتقديم توصيات للحكام لتقديم كل ما يحتاجه وحمايته إلى غاية انتهاء أبحاثه العلمية[12].

ج- آغا العرب: بما أنّ هابنسترايت طبيب فقد كان يصف الأدوية لعامة الناس والشخصيات المهمة في البلاد، فقد أعجب آغا العرب بالوصفات الجيدة لدوائه، ومقابل ذلك الدواء كان يقدم له الهدايا التي تتمثل في بعض الحيوانات النادرة[13]، وهذه الحيوانات هي بمثابة كنز ثمين لدى الرحّالة، فهي تساعده في أبحاثه العلمية، وتحقيق هدفه الرئيسي في البحث عن أكبر عدد ممكن من الحيوانات النادرة في شمال إفريقيا لينال رضا ملك سكسونيا ,الذي قام بإرساله على رأس بعثة علمية.

كما أنّ معارف هابنسترايت الطبية جعلت منه محل تقدير عند الداي عبدي باشا وابنه آغا العرب، ومكنّته من صداقتهما وساعدته على النجاح في مهمته العلمية.

د- باي قسنطينة: وجده على رأس المحلة، في مهمة جمع الضرائب وإخضاع القبائل الممتنعة والثائرة، وبعد اطلاع الباي على رسالة توصية الداي التي سلمها للرحالة كي يقدمها لحكام الأقاليم، وفّر له الباي كل وسائل الراحة والحماية للتجول بمناطق البايلك[14].

المصادر التي اعتمد عليها :

أ- الاعتماد على كتب الرحلات السابقة: زار الجزائر خلال العهد العثماني العديد من الرحالة الأوربيين الذين كلفوا بمهام علمية، سبقوا الطبيب وعالم النبات الألماني هابنسترايت الذي دخل الجزائر سنة1732م استند إليهم في التعريف بالجزائر، ومن خلال قراءتنا للرحلة تبين لنا أنها مهمة من حيث المادة العلمية التي قدمها الرحالة الألماني، فقد اتصف بالموضوعية[15]، وقدمت وصفا دقيقا لأوضاع الجزائر، أما بالنسبة للمعلومات التي لم يستطع الاطلاع عليها بنفسه، فقد قام باقتباس من الرحالة الذين سبقوه، وتبين لنا ذلك من خلال ترجمتنا بعض مقتطفات من كتب الرحالة، ومن بينهم:

- **لوجي دوتاسي (Laugier de Tassy):** فقد اقتبس الرحالة من كتاب دو تاسي وذلك من خلال قوله: "مداخيل الداي ذات قيمة معتبرة فقد قدرها لوجي دوتاسي مائتي ألف قرش أو فلورين في السنة، الجزء الأكبر منها يودع في الخزينة الموجودة في مكان أمين"[16]؛ أما الاقتباس غير المباشر نجد أن دوتاسي تكلم عن البلاد أنها احتلت من طرف الرومان سنة 46 ق .م، ثم الوندال سنة 427 م، وطردوا منها سنة 533 م[17]، وهذا ما أكده هابنسترايت.

- **هايدو[18](Haédo):** صرح هابنسترايت أن مدينة الجزائر عاصمة المملكة التي تحمل اسمها والتي عرفت في الماضي باسم موريطانيا القيصرية[19]، وهذا ما نجده في كتاب هايدو: "كانت تسمى موريطانيا القيصرية، وهي الجزائر العاصمة "[20].

ب- الزملاء والأشخاص المرافقين له: أوفد هابنسترايت إلى شمال إفريقيا على رأس بعثة مهمتها الرئيسية تتمثل في جلب حيوانات، طيور، أعشاب، أزهار، نباتات، وصخور .ومن بين الأشخاص المرافقين لهابنسترايت والذين أشار إليهم في رحلته شولتز (Schultz) وإبرياخ (Eberbach) والبستاني ترو (Trau) كما رافقه في رحلته في مقاطعة التيطري

الكاهن والطبيب الإنجليزي الدكتور شو (Dr. Shaw) إضافة إلى عالم النبات الألماني المشهور كريستيان قوتليب لودفيج (Cristian Gotthieb Ludwig) [21].

وعليه تظهر لنا بعض المساعدات التي قدمها زملاؤه له من خلال تدوينهم الملاحظات التي غابت عنه عند خروجه مع جنود المحلة.

ج- دراسة الآثار والمعاينة الشخصية: تنقل صاحب الرحلة من منطقة لأخرى وعيناه موجهتان للبحث عن الآثار والنقوش لمعرفة تاريخ هذه المناطق من خلال ربط ماضيها بحاضرها، ومن بين المدن والمناطق لأثرية التي زارها نجد:

- **مليانة:** زار هابنسترايت مدينة مليانة وقال عنها: ".... مبنية على نتوء صخري عند جبل زكار ... واكتفينا بمعاينة معالم صهاريج وحنايا مياه، وبقايا سور متين البناء "[22].

- **المدية:** قال عنها هابنسترايت: " المدية هي مدينة بها حصن بني على نتوء صخري ...ويشهد تاريخها القديم وجود حنايا مياه رومانية جميلة"[23]، كما تجول في منطقة وضواحي المدية بحثا عن الآثار، حيث عاين آثار المدينة القديمة أوزويا (سور الغزلان)[24].

- **عنابة:** بعد مغادرة هابنسترايت مدينة الجزائر كانت وجهته التالية مدينة عنابة حيث قال عنها: "... سرنا عبر سهل جميل مغطى بأشجار البرتقال والعناب، وهو الشجر الذي أخذت منه المدينة اسمها، فمدينة بونة أو هيبون القديمة[25] تعرف في اللغة الموريسكية بعنابة"[26].

- **قسنطينة:** تعتبر قسنطينة من المدن التي أخذ سحرها كل الزائرين من رحالة وغيرهم، ومن بينهم هابنسترايت الذي أراد اكتشاف ومعاينة آثارها، ومن أهم ما ذكره عن آثار هذه المدينة:" ... فقد كانت هذه المقاطعة تحت الحكم الروماني مزدهرة جدا وهذا ما تشهد عليه الآثار المتناثرة بكثرة"[27].

3- رحلة ج. أو. هابنسترايت كمصدر هام في تاريخ الجزائر:

1.3 الأهمية في الجانب التاريخي والجغرافي: تطرق صاحب الرحلة إلى ذكر تاريخ مدينة الجزائر قبل مجيء العثمانيين، حيث تكلم بإيجاز عن أهم المحطات التاريخية للجزائر، فقد قال عن تاريخها: " فمدينة الجزائر عاصمة المملكة التي تحمل اسمها، والتي عرفت باسم موريطانيا القيصرية ... وهذه البلاد" مملكة الجزائر" تعرف عادة لدى الكتاب

الأوربيين ببربارية (Barbarie)، في بداية القرن الخامس الميلادي أخضعها جنسريق (Genseric) لسيطرة الوندال، وقد طرد القائد البيزنطي بليزير (Bélisaire) منها الوندال سنة 533 م، وظلت تحت سيادة بيزنطة حتى فتحها العرب سنة 663م"[28].

نؤكد على كلامه اعتمادا على ما كتبه المؤرخون في هذا الشأن بداية من أصل تسمية الجزائر، هي في الأصل جمع جزيرة، وهي أرض في البحر ينجزر عنها المد[29]، وهذا اسمها بالعربية[30]، وهو ما يطابق قول هابنسترايت: " وقد سميت عند العرب بالجزائر بسبب وجود جزر قابلتها بالقرب من الساحل"[31]، وعرفت أيضا باسم موريطانيا القيصرية[32] بكسر الراء، قديمة البنيان فيها آثار محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم[33].

حسب الحقائق المتوفرة عن سكان شمال إفريقيا، فقد أطلق عليهم اسم البربر وهي تعني حسب المفهوم اليوناني والمفهوم الروماني الإنسان الأجنبي الذي لا يتكلم بلغتهم[34]، ولما دخل العرب المسلمون إلى شمال إفريقيا أطلقوا على مدينة إيكوسيوم[35] جزائر بني مزغنة نسبة إلى قبيلة كانت تسكنها[36]؛ وتعاقب عليها عدة كيانات سياسية، فقد احتلت البلاد من طرف الرومان سنة 46 ق م[37]، والذي عقبه الاجتياح الوندالي الذي انحصر نفوذه في السواحل والجهات الشرقية من الجزائر، قبل أن يضع الغزو البيزنطي نهاية له سنة 533 م[38]، وانتهى الحكم البيزنطي سنة 663 م، حيث أعقبه الفتح العربي الكامل لشمال إفريقيا[39].

إنّ تعرض الرحالة لذكر لمحة ولو كانت موجزة عن تاريخ الجزائر هو بمثابة إبراز لأهم المحطات التي عرفتها، ومن خلال ما قدمه صاحب الرحلة الذي أكد على أن تاريخ الجزائر ارتبط بالحضارة الرومانية، واستند في تبريره على الآثار الرومانية بهذه المنطقة، وكتابات الذين سبقوه، ولكن لم يتطرق الرحالة إلى نشأة مدينة الجزائر التي تعود إلى فترة ما قبل الرومان، بدليل قبل تواجد الحضارة الرومانية بالمنطقة كان تواجد الفينيقيين بها ,وهذا ما يؤكده عبد القادر حليمي في كتابه مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 .

أما بالنسبة إلى حدودها فقد تحدث عنها الرحالة فقال: "يحدها من الشمال البحر المتوسط، ومن الغرب مملكة فاس، ومن الشرق مملكة تونس، أما في الجنوب فتوجد

جبال الأطلس"[40]، ويبدو أنها حدودا غير دقيقة من الناحية الجغرافية؛ وهذا ما أكدته الكثير من الكتابات التاريخية، فالحد الطبيعي الوحيد للقطر الجزائري هو الحد الشمالي المتكون من ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما من الشرق الأراضي التونسية، ومن الغرب المغرب الأقصى، ومن الجنوب الصحراء[41].

2.3 الأهمية في الجانب الاجتماعي والاقتصادي :

أولا:اجتماعيا.

أ- طبقات المجتمع الجزائري: لكل مجتمع خصائص ومميزات وعرقيات تمثله، وأهم المجموعات السكانية والعرقية التي تمثل الإيالة الجزائرية تمثلت في سكان المدن وسكان الأرياف، وهذا أيضا ما لاحظه هابنسترايت خلال إقامته بمدينة الجزائر ورحلته في كل من بايلك التيطري وبايلك الشرق؛ حيث تطرق إلى طبقات المجتمع الجزائري وأكد أن سكان المملكة ليسوا كلهم من أصول واحدة[42].

سكان المدن: يحتل الفئة الأولى الأتراك الخلص حسب تعبير صاحب الرحلة أي الذين ينحدرون من آباء وأمهات أتراك، وهم في الغالب يأتون من الشرق، أو قد يأتي بهم القراصنة بالقوة إلى الجزائر[43] ويقصد هنا الأعلاج، وكان الأتراك يشكلون طائفة مغلقة منعزلة عن المجتمع متمسكة بلغتها التركية وبمذهبها الحنفي، تخضع لنظام قضائي خاص، ولها امتيازات خاصة بها[44].

الفئة التي تحتل المرتبة الثانية في الهرم الاجتماعي هي الكراغلة[45]، وهم أبناء الأتراك من الأمهات الجزائريات، وهابنسترايت يضيف إليهم أبناء الأتراك من الأسيرات المسيحيات[46]، ويحتل هؤلاء الكراغلة المرتبة الثانية بعد الأتراك، ولا يقتصر وجودهم على المدن كما هو الحال بالنسبة للأتراك بل كانوا متواجدين في الأرياف كذلك، ويعود أصل كراغلة الأرياف إلى أولئك الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم على السلطة التركية في سنة 1629م[47]، وعلى الرغم من حركات التمرد هذه إلا أنهم احتفظوا ببعض الامتيازات مثل حق الانخراط في الإنكشارية وأهليتهم لتولي بعض المسؤوليات الهامة نسبيا، حيث ذكر هابنسترايت أنهم يكونون مع العناصر التركية جيشا تعداده مائة ألف رجل[48].

بعد ذلك تحدث الرحالة عن الفئة الثالثة (الحضرية) فقال عنها: "أنهم السكان الأوائل للمدينة، فنجد أملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ يصدر منهم في حق الأتراك، وهم في مجموعهم يشتغلون كعمال وتجار"[49]؛ وهم المعروف عنهم أنّهم مجموعات سكانية تقطن المدن، والتي تعود إلى ما قبل الوجود العثماني بالجزائر، ومَن ضُمّ إليهم من الأندلسيين والأشراف، ويخبرنا صاحب الرحلة أنهم السكان الأوائل للمدينة حيث فرضت عليهم التبعية المطلقة وهم في مجموعهم يشتغلون كعمال وتجار[50].

الفئة الرابعة التي ذكرها هابنسترايت هي فئة عرب الأقاليم الداخلية ساكني مدينة الجزائر، ويقصد بها فئة البرانية التي حصرها في البساكرة وسموا بذلك نسبة إلى بلدهم الأصلي بسكرة، كانوا يمتهنون تنظيف الشوارع والمنازل ويقومون بالحراسة ليلا[51]؛ فسكان الريف هاجروا من مدنهم الصغيرة وقراهم إلى المدن الكبرى كمدينة الجزائر للعمل بها[52]، ويتشكلون من الأغواطيين القادمين من الأغواط، الجيجليون وهم سكان جيجل وأول من رحب بالعثمانيين[53]، وغيرهم.

سكان الريف: كان سكان الريف خلال العهد العثماني يمثلون الأغلبية الساحقة من المجتمع ما بين 90 و95 % من مجموع السكان[54]، وهذا ما جعل المجتمع الجزائري يأخذ طابعا ريفيا في معظم الجهات، وهابنسترايت كان قد استعرض لنا مجموعة من فئات المجتمع الريفي دون توضيح منه عن ماهية كل فئة، لكنّه قدّم لنا بعض المعلومات عنها.

تحدّث هابنسترايت عن شيوخ القبائل (الأجواد) فكان الأتراك يعترفون بنفوذهم على مناطقهم، وفي الكثير من الأحيان يعلنون عليهم الحرب ويكثرون الصراعات داخل عائلاتهم، فيناصرون صفا ضد الآخر[55]، وكان هابنسترايت قد عايش هذا الموقف في بايلك الشرق، حيث أن باي قسنطينة قد ألحق الهزيمة بأحد شيوخ القبائل المجاورة وهو الشيخ بوعزيز[56]، وحرمه من مكانته ومنحها لشيخ آخر مقابل مبلغ مالي لكنه تراجع عن ذلك بعد أن قدم له الشيخ المهزوم سابقا عرضا سخيا كان كاف لأن يغير الباي رأيه، وفي الحال أصدر أوامره لفرسان المحلة للتوجه إلى الشيخ الذي أُقر سلفا لنهبه ومطاردته وتشريده[57].

كما تحدّث الرحالة عن المرابطين؛ فالمرابط هو أحد رجال الدين الّذين يُعتقد فيهم البركة والمعروفين بالأولياء أو المرابطين، كما أنهم مفيدين جداً للبايلك لدعوتهم سكان الريف للخضوع وعدم العصيان[58]، وكان صاحب الرحلة قد التقى بهم عدة مرات في الرحلة داخل بايلك التيطري، وتحصل منهم على حيوانات نادرة كان يجمعها ليرسلها إلى ملكه[59].

استعرض هابنسترايت أنواع القبائل المتواجدة بريف الجزائر، والتي تتكون من قبائل المخزن وصفهم هابنسترايت بأنهم عرب تابعون لحكم مملكة الجزائر يأتمرون بأمر البايات الّذين يتصرف كل واحد منهم في عدد من المشاة الأتراك والفرسان العرب مكونين فرقة عسكرية صغيرة تعرف بالمحلة[60]؛ وقبائل الرعية فقد مرّ هابنسترايت على العديد من هذه القبائل في رحلته بكل من بايلك التيطري وبايلك الشرق، وأخبر بأنّه في أحد المرات قضوا ليلتهم في أكواخ القبيلة بعد أن اضطر سكانها لإخلائها من أجلهم[61]؛ وآخرها القبائل الممتنعة حيث ذكر صاحب الرحلة عدّة قبائل منها رجال القبائل وهم سكان البلاد القدامى والذين بقوا لمدة طويلة يحافظون على خصوصيتهم وسط جبال شاهقة[62]، كذلك حديثه عن الغارة التي شنها آغا المحلة المرافق لها على قبائل جبال التيطري الممتنعة[63].

أهل الذمّة: أهل الذمة هم الأجانب عن البلاد وعن الإسلام وفي العهد العثماني عرفت الجزائر فئتين من أهل الذمة وهما اليهود والمسيحيين، ويذكر هابنسترايت" أن مدينة الجزائر مأهولة بعدد كبير من اليهود ويسدد كل واحد منهم ضريبة تقدر بريالين في الشهر"[64]؛ وفي نفس السياق يذكر ناصر الدين سعيدوني أن اليهود في الجزائر إحدى الطوائف المهمة لكثرتهم ولتحكمهم في النشاط التجاري، يتوجب عليهم دفع ضريبة شهرية في شكل رسم عن كل يهودي لخزينة البايلك تقدر بحوالي ألف ريال بوجو (الريال بوجو قيمته 2 86.1 فرنك فرنسي سنة 1830)[65]، وأنهم تمتعوا في بلاد المسلمين بحقوق لم يعرفوها في البلدان الأوروبية[66].

كما قدم لنا هابنسترايت فئة الأسرى الأوروبيين، فقال عنهم: " أن أغلبهم من الإسبان، البرتغاليون، الإيطاليون والألمان،غير أن عّددهم قليل جدا بمدينة الجزائر، وهم يحضون باحترام الأتراك"[67]، وجاء هذا على لسان هايدو حيث قال: " أن أصولهم

تعود إلى مختلف الدول الأوروبية كما كان هناك بعض الأسرى الأمريكان"[68]، وكانوا يعاملون معاملة جيدة، ويقوم الآباء المنقذين بإسكان الأسرى المحررين في منازل اليهود حتى يأتي موعد سفرهم النهائي[69].

ب- عادات وتقاليد المجتمع الجزائري: ذكر هابنسترايت عدة مظاهر تمثل عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، كصيام رمضان ومراسم الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى، لكن من الملاحظ انه لم يتناول في حديثه عن اللباس وعن نوعيته إلا في بعض الإشارات إحداها لما أشار إلى لباس الأشراف وعند تناوله لمكانة المرأة حيث ذكر أنها لا تسير في الأزقة بدون حجاب[70]، وأخرى عند حديثه عن لباس سكان الريف فهم يلبسون حسب مقتضيات الوقت، أي حسب حالة الطقس ويكفي الواحد منهم أن يمتلك برنوس من صوف نظيف بعض الشيء ليكسوا به جسمه[71].

كذلك بالنسبة للغذاء وأنواع المأكولات فقد اكتفى بذكر وصفها العام بأنها مأكولات تقليدية أو الحلويات وأيضا المشروبات مثل اللبن والخمر والزيت والقهوة، فرغم إقامته عند العديد من القبائل وفي عدة مدن لكنه لم يذكر لنا أنواع المأكولات التي قدمت له مكتفيا بوصفها العام .

بالعودة للعادات والتقاليد التي ذكرها بنوع من التفصيل والتي هي كالآتي :

- **صيام رمضان:** وصول هابنسترايت للجزائر كان قبل حلول شهر رمضان المبارك، مما سمح له بعيش الأجواء الرمضانية وتسجيل ملاحظاته، فقد أعطى لنا مقارنة بين صيام جماعة الحضر وجماعة البرانية، فرغم أنّ الجميع يمتنع عن الأكل أثناء اليوم طيلة الشهر، إلا أنّ الصوم بالنسبة للجماعات البرانية يكون منهكا نظرا لما يقومون به من أعمال شاقة وبالرغم من ذلك يلتزمون ويتمسكون بصوم رمضان، بينما الذين هم في درجة أرفع وخاصة الحضر يهيئون في الليل ما يقومون بعمله في النهار تجنبا للإجهاد[72].

- **الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى:** يتم الإعلان عن يوم عيد الفطر بعد ظهور قمر الشهر التالي، فعند رؤية هلال العيد ينقل الخبر في عُجالة إلى الداي الذي يأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر الصيام وحلول عيد الفطر ، وأيام العيد ثلاثة ففي صبيحة اليوم الأول يذهب الناس إلى تقديم التهاني والهدايا للداي[73]، الذي يكون بلباس

الحفل الرسمي جالسا على جلد نمر في قاعة المجلس وأعضاء الديوان حوله، أمامه مائدة الغداء ويكون أول من يبدأ بالأكل مع موظفيه السامين، ثم يكون الدور حسب مرتبة الأشخاص الحاضرين، وتقدم القهوة والحلويات وتوزع على الجند، ويوم العيد يكون مصحوبا بالبهجة والسرور وإقامة الألعاب[74].

يصاحب أيام العيد العودة لشرب الخمر بالنسبة للمتعودين عليه، خاصة الأتراك والجنود، فبعد الامتناع عن شربه طيلة شهر رمضان يُقبلون على شربه أيام العيد التي تطيب فيها المآكل، وإن كانوا لا يجرؤون على تناوله جهارا[75].

ثانيا: إقتصاديا.

أ- موارد الخزينة: تعددت موارد الخزينة، فذكر صاحب الرحلة أن الخزينة تدخلها مقادير ضخمة من الأموال[76]، ومن بين مصادر دخلها حسب ما أورده:

- **فدية الأسرى المسيحيين:** يتحدث الرحالة عن بيع الأسرى قائلا: "تشكل تجارة المسيحيين إحدى موارد الدخل الرئيسية، فكل أسير له قيمة محددة حسب مكانته ...ومن حسن الحظ أن يكون المرء أسيرا لدى الداي، لأنّ الآباء المسيحيين المكلفين بفدية الأسرى ملزمون بتخليص أسرى الداي[77] قبل غيرهم"[78]، وبهذه التجارة تمكن سكان الجزائر من كسب ثروة وراء فداء الأسرى، وهذا الفداء يجرى تحت إشراف المنظمات[79] الدينية المسيحية.[80]

تتطلب عملية فداء الأسرى أموالا ضخمة تتحصل عليها خزينة الجزائر[81]، فقيمة العبد تختلف حسب مهنته وقوته، فيذكر الرحالة أنّ بيع الأسرى يتم في مزاد علني أحيانا، وتحدد قيمة كل واحد منهم حسب سنه وقوته العضلية ومظهره الخارجي[82].

الغنائم البحرية: تعتبر الغنائم البحرية هي الأخرى إحدى مصادر دخل الخزينة، فقد قال صاحب الرحلة: "تخرج سفن إيالة الجزائر للبحث عن الغنائم ..."[83] ؛ تكونت الغنائم البحرية التي يتحصل عليها العثمانيون في نشاطهم البحري على العموم من السفن باختلاف أنواعها، ويذكر الرحالة أنّ من الغنائم البحرية التي تحصل عليها الجزائريون في نشاطهم البحري سفن إسبانية من نوع طارتان وقوارب صيد[84].

لطالما كانت الغنائم البحرية التي يجلبها الرياس المحرك الرئيسي للسوق[85]، فهم يمثلون مصدر رزق التجار[86]، فقد اعتمد الأتراك طيلة حكمهم للجزائر على أسطول كانت له منافع عديدة، منها جلب الأرزاق وحماية البلاد[87].

المحلة ودورها الجبائي: أما عن جباية الضرائب التي كان يقوم بها جنود المحلة، فقد ذكر صاحب الرحلة أن داي الجزائر كان يرسل فرق الجند المعروفة بالمحلة، وقت الحصاد لاستخلاص الضرائب[88]؛ هذه الرحلة توضح لنا السياسة الجبائية للسلطة العثمانية بالجزائر، التي استندت على هيئة عسكرية، وهي المحلة التي كانت تجوب البلاد لأجل جمع الضرائب من السكان، فهذه الضرائب ساهمت في الانتعاش الاقتصادي للإيالة، بمساهمة قبائل المخزن[89]، كدعامة إستراتيجية لجباية الضرائب؛ حيث كانت الوظيفة الأولى للمحلة هي استخلاص الضرائب، بالإضافة لوظائف أخرى كمعاقبة القبائل الممتنعة عن دفع الضريبة، فهي تخلق نوع من التوازن بين النظام الاقتصادي والعسكري، فللمحلة دورين دور اقتصادي ودور عسكري.

ب - الثروة الحيوانية والنباتية:

الحيوانية: قدم صاحب الرحلة وصفا لحيوانات الجزائر، حيث يذكر: "توجد أنواع مختلفة من الحيوانات ... أما بحر الجزائر فوفر لمجموعتي أسماك نادرة"[90]؛ وعن ثروة الجزائر الحيوانية قال الدكتور شاو (Shaw) أن في هذه الأجزاء توجد طيور، بالإضافة إلى الحمير والبغال والماشية وهي الثروة الرئيسية، فالأغنام والماعز والأبقار هي التي تنتج الحليب، ولصناعة الجبن يستخدمون نبات الخرشوف البري ولتحويل الحليب إلى رائب أو لبن يسكبونه في سلال صغيرة مصنوعة من جلد الماعز[91]، ويذكر صاحب الرحلة بأنّه تحصل على لبؤة، قطين متوحشيّن، ابن مقرض، ظبي، طيور نعام[92] وحيرم[93].

-النباتية: أشار الرحالة إلى نباتات الجزائر فذكر أن بها الكثير من الحدائق، وأشجار العنب والبرتقال واللوز وأشجار الزيتون، ونبات الصبار، والنخيل، وأن أراضي الجزائر صالحة جدا للزراعة[94]؛ ففحص مدينة الجزائر غنيٌّ بأشجار العنب والبرتقال واللوز وغيرها من الأشجار المثمرة، وسهل متيجة أراضيه صالحة لزراعة الحنطة بالاضافة لقطعان الماشية المتوزعة في حقوله[95]، كما أنّ الضريبة التي يدفعها سكان الريف

للبايلك والتي تتكون في أغلبها من القمح والعسل والزيت[96]، تبيّن لنا النشاط الممارس والسائد لدى سكان الريف.

3.3 الأهمية في الجانب السياسي والعسكري:

أولا :سياسيا.

أ- إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية: أشار هابنسترايت إلى ظروف إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، فقد قال أن الأتراك افتكوها من الإسبان الذين كانوا يحتلون وهران، فدخلها الإخوة بربروس بعد أن استدعاهم سليم ملك مدينة الجزائر، هذا الأخير الذي تم اغتياله من طرف عروج بربروسة، ولما توفي عروج انتخب الجند أخاه خير الدين ليخلفه، فاعترف بسيادة الدولة العثمانية على البلاد الجزائرية، ومنذ ذلك العهد أصبحت الجزائر ضمن أملاك السلطان العثماني[97]؛ هنا يذكر الرحالة نقطة حساسة اختلف فيها الكثير من المؤرخين حول ظروف وكيفية إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ففي الأول ذكر أنّ عروج بعد اغتيال سليم التومي أعلن نفسه ملكا على الجزائر، لكن بعد تولي خير الدين الأمور في البلاد اعترف بسيادة الدولة العثمانية، بسبب الخطر المحدق وعزم الإسبان على احتلال مدينة الجزائر مما اضطره إلى دفع أعيان المدينة إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية، وفي نفس هذا الإطار يرى الأسير هايدو (Haedo)أنه بظهور الإخوة بربروس شهدت منطقة المغرب الإسلامي تطورات متسارعة تمخض عنها ميلاد الدولة الجزائرية، والتي أصبحت فيما بعد القوة المهيمنة على البحر الأبيض المتوسط[98].

ب- الدايات: تحدّث هابنسترايت عن نظام الدايات الذي كان سائدا، وقال أنّ الأتراك في الجزائر يمتهنون الجندية ويستطيعون حسب النظام العسكري أن يصلوا إلى أعلى المناصب، فالداي نفسه كان جنديا، وقد أشار إلى أنّه يختار لمنصب الداي أحد الأتراك بإجماع الآراء أو بتغلب إحدى الجماعات في فرض مرشحها، وعلى كل فإنّ تولي هذا المنصب يتوجب في أن يكون متوليه تركيا، رغم المخاطر المترتبة عن تولي هذا المنصب[99]، وقبور الدايات الذين يموتون بدون تعرض للقتل من الصعب العثور عليها فهي تقع في أماكن داخل المدينة، وتتخذ مزارات للتبرك بها، أما الذين يموتون نتيجة القتل فيدفنون بدون إقامة مراسيم بالمقابر الواقعة خارج باب الوادي، حيث

شاهد هابنسترايت ستة قبور لدايات تم اغتيالهم في نفس اليوم الذي تولوا فيه منصب الداي[100].

ج- **الديوان:** أشار هابنسترايت إلى أن الديوان هو مجلس مؤلف من كبار ضباط الأوجاق وهم الآغوات الذين يصلون إلى هذه المرتبة بالتتابع حسب تقدمهم في السن[101]، ويترأس الديوان آغا[102]، يصاحبه الشواش[103]، والضباط السامين وهم الكاهية[104]، ومعزول آغا، وسلك الضباط من رتبة بلوك باشي وأوده باشي والبيك باشي، أما رئيس الهيئة الدينية فهو المفتي المرسل من طرف اسطنبول مثله مثل القاضي[105].

كما بيّن هابنسترايت أن قصر الداي يستعمل في نفس الوقت كقصر للعدالة، وكانت كلمة شرع الله أو عدالة الله لها في هذا المقام وزن كبير، والأتراك تتم معاقبتهم في سرية حفاظا لكرامتهم، بينما تنفذ الأحكام علانية في الحضر وباقي الطوائف عند باب عزون والأسرى المسيحيون يقومون بمهنة الجلد[106]؛ وهذا ما يتناسب مع ما اقتنع به ناصر الدين سعيدوني وبوعبدلي أن النظام القضائي في نصوصه يعتمد على الشريعة الإسلامية[107]، ويمتاز بالسرعة في الفصل في القضايا[108]، ونجد أن الأتراك يتمتعون بميزات خاصة في القضاء تميزهم عن بقية المواطنين، حتى أن تنفيذ الأحكام تتم بسرية حفاظا على كرامتهم[109]، بينما إذا تعلق الأمر بغير الأتراك فإن العقوبات تنفذ أمام الملأ بعد أن يشهر البراح بها في الأسواق[110].

أما اليهودي أو النصراني الذي يرتكب جرائم كبيرة كأن ينقص من معدن العملة تقطع يديه ويشنق ويطاف بجثته على ظهر حمار في أرجاء المدينة، والضرب بالعصا هو من الأمور الأكثر شيوعا، وعند ارتكاب جرائم أخرى فلليهود قاض خاص بهم، بينما النصارى لهم الحرية في رفع تظلماتهم أمام قناصل دولهم[111]؛ ونؤكد صدق كلام هابنسترايت بالقول أن لليهود محاكم خاصة بهم ولا يعودون في أحكامهم إلى القوانين المعمول بها في البلاد إلا إذا تعلق الأمر بالمخالفات التي تحدث بينهم وبين المسلمين[112].

نظرا للأهمية البالغة للقضاء ودوره في إرساء العدالة بين أفراد المجتمع، يتبين لنا أن الحكومة كانت مصممة على أن يكون العدل من حق الجميع في كل الحالات، لكن نلمس بعض تجاوزات إذا ما تعلق الأمر بالأتراك.

د- البايليكات: كذلك تطرق هابنسترايت إلى المقاطعات (البايليكات)، فتحكم من طرف البايات أو نواب الداي وتعطى لهم حرية التصرف[113]، ومن هذه المقاطعات نذكر دار السلطان، وهي منطقة التي كان يحكمها الداي مباشرة، وبايلك التيطري وعاصمته المدية، التي كانت تحت إدارة حاكم تابع مباشرة لديوان مدينة الجزائر دون أن تكون للباي أي سلطة عليه[114]، أما بالنسبة لبايلك الشرق فيتشكل من أربع مناطق جغرافية وهي القسم الشرقي الذي يشمل موطن النمامشة والقسم الشمالي الذي يمتد من عنابة إلى بجاية والقسم الغربي الذي يشمل مدينة سطيف إلى جبال البيبان والقسم الجنوبي المتاخم للصحراء[115]، وبايلك الغرب الذي يمتد من بايلك التيطري إلى غاية الحدود المغربية غربا ويقع هذا الإقليم غرب مدينة الجزائر[116].

لقد كانت البايليكات التي تطرقنا إليها تخضع لنظام إداري تحت إشراف السلطة العثمانية الحاكمة، حيث كان يرتبط مباشرة بالداي في مركز الحكم التركي في مدينة الجزائر، وطبعا على رأس البايلك ممثل الداي وهو الباي ,يعتبر من القادة الانكشاريين وله مهمته وسلطته المحدودة التي يمارسها.

ثانيا: عسكريا: تطرق هابنسترايت في حديثه عن النظام العسكري لايالة الجزائر، وقال بأن هذا الجيش مكون من عناصر تركية، وأنه يقسم كل سنة إلى ثلاثة أقسام، وتكون إقامة هؤلاء الجنود في ثكنات عددها ثمانية، والداي هو المسؤول عن دفع مرتباتهم حتى إنه ذكر أن الجندي غير المتزوج يستلم أربعة أرغفة لكنه بعد زواجه تمنع عنه، والانكشاريون يصلون إلى أعلى المراتب في الدولة إلى غاية رتبة معزول آغا[117].

تحدثت كتابات أخرى عن هذا الموضوع، وقد اختلف المؤرخون في تعداد الجيش العثماني بالجزائر، قدر دوتاسي (De Tassy) القوات التركية بالجزائر ب 12 ألف جندي[118]، ووليام شالر ذكر أن عددهم كان 15 ألف جندي[119]، أما الكيفية التي كان يعمل بها الجند، قال هايدو (Haedo) أن عمل الانكشارية مقسم إلى ثلاثة سنوات، السنة الأولى يتدرب فيها الجندي داخل إقامته بالثكنة، والسنة الثانية يخرج لجباية الضرائب وقمع الثورات، أما السنة الثالثة له الحق في الراحة[120].

لقد تميزت المؤسسة العسكرية الجزائرية أثناء العهد العثماني بتنظيم خاص وقوانين محكمة، وتعددت مهام الجيش من العسكرية إلى السياسية والاقتصادية، وهذا معناه أن الجيش هو أساس السلطة العثمانية بالجزائر.

كما تطرق صاحب الرحلة لذكر الحملتين الإسبانيتين في 1541م وفي 1732م، فوصف لنا الحملة الإسبانية التي قادها شارلكان على الجزائر سنة 1541 بأنها حملة بائسة[121]؛ أما الحملة الثانية التي قامت بها إسبانيا على الجزائر ونقصد بها حملة1732 م وهي السنة التي صادفت زيارة العالم الألماني للجزائر[122]، فقدم لنا وصفا عن استعدادات حكومة الداي لرد هذه الحملة، ولم يشاهدها لأنه غادرها وتوجه إلى تونس بفعل الأوضاع السياسية غير المستقرة.

4.3 الأهمية في الجانب المعماري: وضّح هابنسترايت أن الجزائر شهدت حركة عمرانية وذلك من خلال قوله" :البياض الناصع لمنازلها ذات السطوح المشرفة على البحر وهو الذي يكسبها منظرا متميزا"[123]، وهذا ما أشار إليه دو بارادي (De Paradis) بقوله: "أن الجزائر عرفت بعدة أسماء والتي اشتهرت بها اسم الجزائر البيضاء، بسبب حرص السكان على تبييضها مرة كل سنة على الأقل، بالإضافة إلى ذلك فهي تبيض في أيام الأعياد الدينية"[124]، كما يؤكد هذا جون وولف أن منازلها متصاعدة على سفح الجبل وهي تشكل مدرجا، وتظهر الأسوار والمنازل ناصعة البياض وسط أشعة الشمس[125].

كما تحدث هابنسترايت عن منازل المدنية التي قال عنها بأنها منتظمة، وأن المدخل ينفتح على فناء مبلط بقطع رخام مربعة الشكل وعادة ما يكون الفناء مربع الشكل، أما الغرف فهي مستطيلة، وللمنازل أسطح مهيأة لأن تكون مكانا للاستراحة، ولا ينفذ ضوء النهار إلى المنازل من جهة الشارع حيث لا توجد إلا منافذ صغيرة يمكن رؤية الخارج منها، وإنما يصل الضوء إليها من الفناء المفتح على الغرف[126]؛ هذا ما أكدته مجموعة من الكتابات التاريخية، فنجد أ. ليسور وو.ويلد في كتابه رحلة طريفة إلى إيالة الجزائر يؤكدان على أن ديار مدينة الجزائر مربعة، وأن ليس لها نوافذ تطل على الشارع والنوافذ الداخلية منخفضة لا تترك مجالا لدخول الضوء[127]، كما أكد شاو(Shaw) أن جدران الغرف مكسية بالجبس، وتعتبر السطوح من المساحات التي استغلها سكان مدينة الجزائر وجعلوها حيزا لعدة استعمالات[128]، وسقوف المنازل متقاربة إلى حد يمنع شعاع الشمس من الوصول[129].

أما أزقة المدينة فيذكر الرحالة أنها غير مستقيمة وضيقة ووسخة ويصعب السير فيها[130]، وهذا ما يبينه نصر الدين براهمي في قوله: "من الخصائص المميزة لشوارع مدينة الجزائر أنها ضيقة حيث لا يمكن لشخصين السير فيها جنبا لجنب"[131]، أما داخل الأسوار فإن الكثير من الجمال الأبيض يترك المجال للشوارع القذرة فبعضها لا يتسع حتى لاثنين من

المارة للمرور بسهولة، وفي الشوارع الأكثر اتساعا كان الرجل يزاحم الجمال والخيول والحمير[132].

لكن منازل الريف كثيرة جدا بفحص المدينة، وهي مريحة للسكن، وغرفها ذات هندسة تساعد على الحد من الحرارة الشديدة في الصيف، وبها بساتين البرتقال وصنوف الأشجار[133]؛ وقول هابنسترايت يتشابه مع ما ذكره وليام شالر أن المنازل الريفية يقصدها الأثرياء في فصل الصيف، وبها حدائق وهي مطلية بالجير ومغطاة بأشجار مثمرة[134].

أما المساجد فهي متقنة البناء منها عشر مساجد كبيرة ذات منارات، أما التي تقل عنها شأنا فعددها يفوق الخمسين، وأراضيها مغطاة بالحصائر والزرابي وأبنيتها تشدّها عرصات قوية[135]، وهذا ما يؤكده جون ب.وولف بقوله: "أنه يوجد في مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر عشرة مساجد كبرى، وحوالي خمسين مسجدا صغيرا"[136]، وكانت لها منارات وصوامع ذات قواعد مربعة ومبيضة بالجير، وأرض المسجد مغطاة بزرابي مزركشة بشتى الألوان[137].

الخاتمة: رغم المدة القصيرة التي قضاها الرحالة والطبيب وعالم النباتات، الألماني ج. أو. هابنسترايت في الجزائر، إلا أنّ رحلته كللت بالنجاح مقارنة مع الفترة التي قضاها في كل من تونس وطرابلس الغرب، فهدفه الأول الذي صرح به من هذه الرحلة هو جمع عينات من حيوانات ونباتات المنطقة، وهذا ما حققه بالاضافة إلى المعلومات الغزيرة التي سجلها، التي تؤكد على أهمية هذه الرحلة كمصدر هام في تاريخ الجزائر، فنجده كان يدوّن كل ما يراه من عادات وتقاليد، وسلوك الجزائريين، حتى أنه تطرق حتى إلى الغطاء النباتي للمناطق التي زارها وجغرافيتها.

أشار صاحب الرحلة إلى أهم وأبرز الأحداث السياسية التي عرفتها إيالة الجزائر، فالتواجد العثماني بالجزائر كان مرتبط بظهور الإخوة بربروس في منطقة البحر المتوسط، كما تميزت المؤسسة السياسية والعسكرية الجزائرية أثناء العهد العثماني بتنظيم خاص وقوانين محكمة، وتعددت مهام الجيش من العسكرية إلى السياسية والاقتصادية، وهذا معناه أن الجيش هو أساس السلطة العثمانية بالجزائر.

كما وضح تأثر الجزائريون في الجانب العمراني بالنمط العثماني، حيث اشتهرت المساجد بالجمال والثراء وحسن الذوق، كما كانت البيئة وراء طريقة العمارة في الجزائر فالحرارة والبرودة من جهة وعدم ظهور المرأة هي التي أملت كثير من أساليب بناء المنازل.

الهوامش:

[*]-Johann Ferdinand Neigebaur, Geschichte der kaiserlichen Leopold carolinishen deutschen Akademie der Naturrforscher während der zweiten Jahrbunderts ihres Bestehens, Jena, 1860, s212.

2 - ج .أو .هابنسترايت، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص.13

3-Johann Ferdinand Neigebaur, Ibid, s212.

4 - أغسطس الثاني :ولد بدريسدن (Dresden) عاصمة سكسونيا (Saxe) سنة 1670 ، أمير سكسونيا وملك بولونيا (1670-1733م)، اعتنق الكاثوليكية حتى يصير ملكا على بولونيا، خلع عن العرش سنة 1704 من قبل شارل الثاني عشر، لكنه أعيد بعد تدخل الجند الروس، توفي بفرصوفيا (Versovei) سنة 1733 ، أنظر :زكريا العابد، الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر،2007 ، ص54 .---5 - منير الفندري،" هابنسترايت وبعثة أمير سكسونيا العلمية بشمال إفريقيا (1732-1733م)، المجلة التاريخية المغاربية، العدد35 -36، تونس، 1984 ، ص231 . ---6- ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص 14.---7 - نفسه، ص،ص 14-8.15---- نفسه، ص،ص 15-16.---9 - نفسه، ص21 .---10- نفسه، ص 76.---11- نفسه، ص21. ----12- نفسه، ص 22، ص13.54---- نفسه، ص51.---14 - نفسه، ص85.---15 - وهذا ما أكد عليه ناصر الدين سعيدوني الذي وصفها بكونها أقرب ما تكون إلى الاعتدال والموضوعية والنظرة المتزنة بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها.---16- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص41 - 42.

17-Laugier de Tassy, Histoire de royaume d'Alger, Amsterdam, Henri de Sauzet, M.DCC.XXV, p p 5-6.

18 - هايدو : هو راهب إسباني وكان أسيرا بالجزائر في الفترة 1581-1587، ولقد كان ملاحظا وسائلا دقيقا وذكيا وحساسا، ويعتبر عمله أساسي لكل الكتابات الغربية اللاحقة عن الجزائر .ينظر :جون .ب .وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق :أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر،2009 ، ص 463.---19 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص .24

20- Diego de Haédo, Topographie et Histoire générale d'Alger, Traduit de l'espagnol par : Monnereau, A. Berbrugger, Valladolid, 1612 , p 8.

21 - منير الفندري، المرجع السابق، ص231 .---22 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص61 - 62.---23 - نفسه، ص ص 65-67.---24- نفسه، ص25.69---- مدينة بونا: وهي من كلمة Hippo أو Hippona وهي رومانية البناء؛ ينظر:

-Thomas Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, ou description géographie, physique philologique, traduit par J. MacCarthy, chez Marlin, éditeur, Paris, 1830, pp338- 340.

26 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص 80-81.---27- نفسه، ص85 .----28- نفسه، ص ص24 - 29.27--- - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ط1 ، تحقيق وتقديم :المهدي بوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013 ، ص259 .---30 - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم :إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982 ، ص 31.72---- ج .أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص35 .

32 -Diego de Haédo, op.cit, p 7.

33 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر – المدية – مليانة، ط2 ، وزارة الثقافة لمديرية الفنون والآداب، الجزائر، 2005، ص ص 70.---34 - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 07.---35 - إيكوسيوم :مركبة من جزأين" أي "معناه جزيرة و"كوسيوم "أي عشرون، ذلك أن الذين أسسوها كانوا عشرون (أصحاب هرقل) ينظر :عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 12-36.70--- - علي عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 ، ط1 ، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، 1972، ص137.

37-Laugier de Tassy, op.cit , p18.

38 - 6-ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، عالم المعرفة، الجزائر، 2008 ، ص .165

39 -Laugier de Tassy, op.cit, p 19.

40 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص25 .---41 - أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، مطبعة العربية، الجزائر، 1948 ، ص04 , وأيضا: وليام شالر، المصدر السابق، ص27 .---42- ج .أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص 29- 30.---43 - نفسه، ص29.----44- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1518-1830)، دار هومة للطباعة، ط2، 2002، ص،ص356- 357.---45- الكراغلة تحوير للفظ التركي كول (العبد) وأغلو (الابن) أي ابن العبد، ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تحقيق العربي الزوبيري، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2006، ص. 62.---46 - ج.أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص. 29.---47 - صالح عباد، المرجع السابق، ص،ص. 357- 358.---48 - ج.أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص. 29.---49 - 50- نفسه، ص 32.----51 - نفسه، ص،ص. 33- 34.----52 - صالح عباد، المرجع السابق، ص. 359.---53- درقاوي منصور، الموروث الثقافي العثماني في الجزائر، مذكرة ماجستير، جامعة وهران1، 2014-2015، ص- ص، 18 – 36.

54- صالح عباد، المرجع السابق، 359.---55- المرجع نفسه، ص.361.---56- هو الشيخ بوعزيز شيخ قبيلة الحنانشة التي تقطن بمنطقة سوق أهراس، وحسب صاحب الرحلة كان يكنى بأبي الوطن. ينظر: ج.أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص. 85.

57- نفسه، ص. 85.---58- نفسه، ص،ص. 63-64.---59- من بين هذه الحيوانات حيوان الحيرم (البقر الوحشي)، النعامة والغزال....، ينظر: ج.أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص،ص. 63-65-66.---60- نفسه، ص،ص. 83-84.---61- نفسه، ص. 54.

62- نفسه، ص. 56.---63- نفسه، ص. 69.---64 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص 65.33---- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 105.---

66 - نجوى طوبال، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر1700 -1830 من خلال سجلات المحاكم الشرعية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008 ، ص27 .---67 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص34 .

68-Diego de Haedo, Op.cit., p 49.

69 - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص67 .----70 - الحجاب بكون بلبس الحايك، حيث أن المرأة تلبس فوق لباسها عند الخروج حايك أبيض وتتحجب حتى عيونها بقطعة قماش شفافة بيضاء. ينظر: ويليام سبنسر،الجزائر في عهد رياس البحر، تحقيق عبد القادر زبادية، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص. 107.---71 - ج.أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص. 59.---72 - نفسه، ص. 48.---73 - أغفل صاحب الرحلة ذكر صلاة العيد والتي تكون قبل تقديم التهاني وإلقاء السلام على الداي في قصره حيث تكون أبوابه مفتوحة على مصراعيها يوم العيد. للمزيد أنظر: أحمد بحري، الجزائر في عهد الدايات (دراسة للحياة الاجتماعية إبان الحقبة العثمانية)، دار الكفاية للنشر والتوزيع، ج2، 2013، ص. 118.---74 - ج.أو. هابنسترايت، المصدر نفسه، ص. 49.---75- نفسه، ص. 48.---76 - نفسه، ص 40.---77 - أسرى الداي :يعيش أسرى الداي داخل القصر، الذي يتربع على مساحة 400 متر مربع، وسط المدينة، ولا يمكنهم الهروب منه .ينظر: .Laugier de Tassy, op.cit, p 164-

78 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص42 .----79 - لعبت هذه المنظمات دورا كبيرا في الحصول على حرية الأسرى، خاصة منظمة الثالوث المقدس التي تعتبر أكبر منظمة دينية لافتداء الأسرى تأسست سنة . 1198 ينظر :قرباش بلقاسم، الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطنبولي، معسكر، 2015-2016، ص ص 188-189.---80 - علي عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص290 .----81 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 29.---82- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص 44.---83 - نفسه، ص43 .---84- نفسه، ص 44.---85 - مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3 ، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964 ، ص 123.---86 - أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص169.----87- علي عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص 280.---88 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص33 .89--- - قبائل المخزن :رجل المخزن بالمعنى الحرفي هو أداة أو عون، ويشار إلى فرسان المخزن بأسماء عديدة منها المخزنية أو الزمول، ويشكل فرسان المخزن القوة الأساسية للإدارة التركية في الأرياف .ينظر :صالح عباد، المرجع السابق، ص 487. وناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص258 .---90 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص 51.

91-Thomas Shaw, op.cit, pp 39-43.

92- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص 51.---93- نفسه، ص 64.----94 - نفسه، ص ص50-95.51---- - نفسه، ص ص 49-50.---96- نفسه، ص 56.---97 - نفسه، ص27 .

98-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, traduit de l'espagnol par Grammont, H. D, édition grand-Alger livres, Alger, 2004, P 14.

99 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص 30-40.----100- نفسه، ص 40.----101- جميع أعضاء الديوان تقريبا يكونون متقدمين في السن .ينظر :حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 120.----102 - الآغا :وهو القائد الأعلى والذي يمكن تسميته بوزير الحربية .ينظر :وليام شالر، المصدر السابق، ص43 .----103 - الشواش :ينقسمون إلى أقسام عديدة، منها :شواش الديوان أو شواش القصبة يميزون بالعمامة المبرجة، يهتمون بإلباس الداي البشماق عند خروجه من صلاة الجمعة، وشواش الصفار :يكون في خدمة آغا الانكشارية خلال الأعياد الدينية وأيام دفع الضرائب بالإضافة إلى آخرين .ينظر: Venture de Paradis, Alger au XVIII siècle, édité par : E Fagnan, Alger, Typographie Adolphe Jourdan 4, Place de gouvernement, 4, 1898,pp 56-77.

104 - الكاهية :نائب الباش شاوش، ويمتاز بلبس العمامة المبرجة. ينظر :علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، ج1 ، ط1 ، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص59 .----105 - يضم المجلس إضافة إلى الموظفين المذكورين المفتي المالكي والمفتي الحنفي، ينظر :علي خلاصي، المرجع السابق، ص188 .---106 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص 39-44-45.

107 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص22.----108 - عميراوي أحميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا ، أنموذجا)، دار الهدى، الجزائر، 200 ص 71.---109 - صالح عباد، المرجع السابق، ص 173.---110 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص23 .---111- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص40 .---112 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 23.---113 - ج.أو.هابنسترايت ,المصدر السابق,ص45 .---114- أحمد الشريف الزهار ,المصدر السابق ,ص49 .

115- محمد صالح العنتري ,مجاعات قسنطينة ,تعليق وتحقيق :رابح بونار ,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع , 1980 ,ص18 .

116-Laugier de Tassy, op.cit,p 94.

117 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص25 -32.

118- Laugier de Tassy, op.cit, p204.

119 - وليام شالر، المصدر السابق، ص61 .

120- Diego de Haedo, topographie et histoire d'Alger, op.cit, p513.

121 - ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص 127.----122- وفي جوان سنة 1732م تمكن الإسبان من القيام بهجمة جعلت معظم المدافع الجزائرية غير صالحة للاستعمال، وقد حكم الإسبان من جديد مدينة وهران سنة 1732 وتخلى أهل البلاد عن مدينة وهران وحصونها .أنظر :جون ب .وولف، المرجع السابق، ص . 401 . --- 123- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص37 .

124- Venture de Paradis, Alger au XVIII siècle, op.cit, p 7.

125- جون ب .وولف، المرجع السابق، ص 150.---- 126- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص37 .

127- أ .ليسور و.ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة :محمد جيجلي، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 40.--- 128- محمد الطيب لعقاب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009 ، ص 105.

129- وليام شالر، المصدر السابق، ص73 .--- 130- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص .36

131- ناصر الدين براهمي، ، تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني، منشورات ثالة، الجزائر، 2010 ، ص147 .

132- جون ب .وولف، المرجع السابق، ص ص150 -151.---- 133- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص .37

134- وليام شالر، المصدر السابق، ص74 .---- 135- ج .أو .هابنسترايت، المصدر السابق، ص37 .

136- جون ب .وولف، المرجع السابق، ص ص153 -154.---- 137- مصطفى بن حموش، مساجد الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010 ، ص20 .